

يد الله مع الجماعة في المجتمعات العربية

الفردانية تسجل نقاطاً مهمة على حساب المعايير التقليدية لكن من دون تحقيق ثورة كاملة



انطواء على العائلة والأصدقاء

أن لجيلهم الفضل في إسقاط الدكتاتورية، متهمين الأكبر سناً بتمكين الدكتاتورية. لكن بعد مرور عشر سنوات على الثورة تخلى معظم الشباب عن تفاؤلهم بشأن مستقبل تونس لدرجة أنهم يقومون بكل ما في وسعهم لمغادرة البلاد بحثاً عن فرص أوفر في الخارج.

وفي المقابل ينتقد التونسيون الأكبر سناً الأجيال الشابة لافتقارها إلى الإحساس بالمجموعة.

وسجلت الفردانية نقاطاً مهمة على حساب الجماعة والمعايير التقليدية، لكن من دون تحقيق ثورة كاملة وتغيير في النسق الاجتماعي. فالثقافة الجماعية والعلاقات التقليدية مازالت مؤثرة وفاعلة، بل مطلوبة لمجابهة المصاعب والأزمات التي يوضع فيها الفرد في غياب استقلالية مادية وتعليم جيد. كما أن العرب يزاوجون بين القيم التقليدية والحدائرية بحسب ما تقتضيه الوضعية. وأحياناً يقع اختيار حل وسط مرض للجميع بالتفاوض بين ما هو تقليدي وما هو حديث في كل مسألة على حدة، وأحياناً الجمع بينهما بواسطة التريب والتزيق والتلفيق.

عودة الدين

لا تزال المجتمعات تفرض على الفرد المختلف في اختياراته عزلة مجتمعية قد تصل إلى حد قطع سبل العيش؛ أي أن الفردانية قبل أن تكون مؤثرة قد تؤدي بأفرادها إلى حالة اغتراب وقتية عن المجتمع وعقله الجمعي. ومن المرجح أن مقاومة العقل التقليدي للحداثة تنبع أساساً من استمرار ثقافة تركز على التواصل الشفهي.

ويعتبر ارتفاع معدل الأمية إلى جانب الانخفاض اللافت في معدل القراءة من العوامل التي يمكن أن تفسر إلى حد كبير الافتقار إلى الفردانية في الدول العربية. ويقول الكاتب السياسي حازم صاغية إن المنطقة العربية مازالت لم تحقق فردانيتها بل إنها تابعة للجماعة بمختلف أشكالها (الدين والعائلة والمجتمع والقبيلة والحزب). ويضيف أن هذه المجموعات لها الحق الكامل في التدخل في حياة الفرد ومعارضته إذا كانت خياراته تخالف المعتقدات والأعراف الاجتماعية.

ويرى باحثون أن عودة الدين هي تعبير عن عدم قدرة المجتمع على الوصول إلى الحداثة. وبسبب عدم وجود الفردانية في المجتمعات العربية، تأخذ عودة الدين بعداً سياسياً وأيديولوجياً. ونظراً لقدرته على حشد الجماهير، فإن الدين يمثل قوة يمكن للسلطة السياسية تسخيرها.

وحلت الانتصارات الأيديولوجية الطوعية في كثير من الأحيان مكان الفردانية من خلال "الانتماء الفخوري" لجماعات الإسلام السياسي على غرار جماعة الإخوان المسلمين.

والمثلية الجنسية ومسألة حرية التعبير السياسي. وأظهرت ثورات العالم العربي أن تحولات عميقة جذت على بنية المجتمعات العربية وعلى شخصية المواطن العربي. ولعل من أبرز ما كشفت عنه هو بروز مظاهر فردانية حميدة وإبداعية لدى جماهير الثائرين والمحتشدين في الساحات والميادين العامة.

ومن بين المظاهر المميزة للفردانية العربية تلك الافتقار الصغرة التي يحملها المواطنون خلال الاحتجاجات، والتي تعكس كل منها شخصية صاحبها ونظرة الخاصة وأسلوبه المختلف في نقل رسالته. لكن هذه التمرّات غالباً ما عكست فردانية هشّة ومهزومة ولا تتجاوز رد الفعل الانفعالي تجاه ما تتبناه من أفكار وسلوك، وتغلب عليها نزعة المظلومية، ودور الضحية، وأحياناً لم تزد عن كونها استعراضاً لا يخلو من المنفعة المادية والرغبة في تحقق ذاتي يتطلب الإحساس ببلدة الضوء والشهرة.

ورغم أنه لا يمكن تجاهل ما يمارسه المجتمع والسلطة السياسية من استبداد وقمع ضد أي شخص يعلن تحديه لهما، لكن الأمر يستوجب نقد الياتته وكيف تستغله الأيديولوجيا، لاسيما وأن البعض يحاكي النموذج المتحدر دون قرار ذاتي في ما يعرف "بعدوى المثال". ولم تكن الفردانية العربية الجديدة لتظهر دفعة واحدة لولا سلسلة من التحولات التي مرت بها الشخصية العربية على مدار العقود القليلة الماضية، والتي لعبت العولمة وثورة المعلومات والاتصالات دوراً كبيراً في صنعها، حيث سمحت فضاءات الحرية المنتزعة عنوة من الأنظمة المستبدة بفرصة ظهورها وازدهارها.

وكشفت الثورات الشعبية عن الزدهار والتنوع اللذين جذاً على شخصية المواطنين العرب في "ظروف الحرية". فهويتهم كإفراد لم تعد تتحدد وتتشكل في سياق الجماعة أو الفئة الاجتماعية المغلقة التي يولدون وينشأون فيها، وإنما باتت تتحدد في سياقات وطنية وإقليمية وعالمية أكثر رحابة وانفتاحاً. وفي تونس تكشف النقاشات عن انقسام جيلي (نسبة إلى الجيل) صارخ في المواقف. ويؤكد الشباب

وقيم جماعية، سواء كانت قبلية أو عائلية أو دينية أو عرقية، فالقيم الدينية المبنية على معنى الحلال والحرام أو القيم العرفية، هي قيم تنتمي إلى العقل الجمعي الموحد، حيث تعزز من وصاية الجماعة على الفرد. فيصعب على الفرد المتعلق بها بناء مواقف موضوعية وعقلانية مع الآخرين لإعتبارات أخلاقية عاطفية.

ثورات الفردانية الهشة

مثلت ثورات الربيع العربي حدثاً استثنائياً في منظور الكثير من الشباب الذين أعادوا اكتشاف ذواتهم وبناء وعيهم. وظهر الشباب العربي متحدياً سلطة الدين والسياسة، ما دفع بالقضايا الاجتماعية الشائكة، التي ظلت حبيسة عقود من الصمت والكبت للبروز على السطح، والتي أحدثت صداماً وجدلاً عنيفاً كقضايا النسوية وحرية الاعتقاد

العرب يزاوجون بين القيم التقليدية والحداثة بحسب ما تقتضيه الوضعية، وأحياناً يقع اختيار حل وسط مرض للجميع بالتفاوض بين ما هو تقليدي وما هو حديث

ويقول الباحث التونسي في التاريخ عبد الحميد هنية إنه اصطدم في بحثه عن إطار معرفي ونظري لدراسة سيرورة نشوء الفرد في المجتمع التونسي، بمسئمة التعارض الجذري بين المجتمعات الشرقية والغربية، باعتبار أن الأولى منتمية إلى نموذج كلياني لا يترك هامشاً لبروز الفرد ولا يعترف إلا بالجماعات والمراتب، وأن الثانية مؤسسة على قدسية الملكية الفردية وقيم الحرية والمساواة.

ويقول الأستاذ في جامعة تونس الولدي قسومي أن "الفردانية في الغرب كانت نتاجاً طبيعياً للثورات وهي متاضلة فيها، أما في حالة الموضوع قيد النقاش فنجد أن الفردانية من ناحية أولى هي وليدة البنيوية الصدفية ومن ناحية ثانية هي أصل للثورة وليست نتاجاً لها".

وتختلف القيم الحداثية في المجتمعات الغربية عن القيم التقليدية في المجتمعات العربية. فالأولى تعلي من الفردانية والاستقلالية، بينما تنصّر الثانية للجماعة والخضوع، حيث تهدف هذه الأخيرة إلى إدخال الفرد في عقل جمعي مؤطر بمعايير

أو إعالته، فإن رجال القبائل ببساطة يلجأون إلى جماعة أخرى". ويستنتج باحثون أن النزعة الفردية أخذت في الازدياد في المنطقة العربية مما يؤثر على الطريقة التي يتعامل بها الناس مع السلطة ومع بعضهم البعض. ويجادل باحثون بأن الفردانية ليست فلسفة جديدة في تاريخ العرب، لكن القراءة المغلوطة للفلسفة "يد الله مع الجماعة" كانت حاضرة بقوة لتتصدى لنماذج الفردانية الناشئة، إلا أن هذا لم يمنع الأفراد من التأثير في مجتمعاتهم ولو بعد حين، حتى وإن تعرضوا للتنكيل.

وتقود الحداثة الاتجاه المتزايد نحو الفردانية. وفي المجتمعات العربية، لم تتحقق الحداثة بنفس الطريقة التي تتحقق بها في المجتمعات الغربية. ويمكن الاختلاف في أن المجتمعات العربية أختبرت التحديث بشكل رئيسي من خلال الإصلاحات السياسية. وفي الكثير من الحالات سار التحديث راسياً، مما أثر على البيئة التي يعيش فيها الأفراد وليس على الأفراد أنفسهم. بينما شهدت الحداثة الغربية ثورة ثقافية وفكرية أولاً.

ويقول الباحث التونسي في التاريخ عبد الحميد هنية إنه اصطدم في بحثه عن إطار معرفي ونظري لدراسة سيرورة نشوء الفرد في المجتمع التونسي، بمسئمة التعارض الجذري بين المجتمعات الشرقية والغربية، باعتبار أن الأولى منتمية إلى نموذج كلياني لا يترك هامشاً لبروز الفرد ولا يعترف إلا بالجماعات والمراتب، وأن الثانية مؤسسة على قدسية الملكية الفردية وقيم الحرية والمساواة.

ويقول الأستاذ في جامعة تونس الولدي قسومي أن "الفردانية في الغرب كانت نتاجاً طبيعياً للثورات وهي متاضلة فيها، أما في حالة الموضوع قيد النقاش فنجد أن الفردانية من ناحية أولى هي وليدة البنيوية الصدفية ومن ناحية ثانية هي أصل للثورة وليست نتاجاً لها".

وتختلف القيم الحداثية في المجتمعات الغربية عن القيم التقليدية في المجتمعات العربية. فالأولى تعلي من الفردانية والاستقلالية، بينما تنصّر الثانية للجماعة والخضوع، حيث تهدف هذه الأخيرة إلى إدخال الفرد في عقل جمعي مؤطر بمعايير

في الوقت الذي يتميّز فيه المجتمع العربي بعلاقاته الاجتماعية القوية والمبنية على التعاون والترابط الأسري، دفعت تغييرات الحياة اليومية وسرعتها ومتطلباتها بالنزعة الفردية إلى قلب هذه القيم، وبدأ أن الفردانية باتت تطغى على الحياة الاجتماعية. ولكن بالرغم من ذلك، فإن الخبراء يتوقعون ألا تغيب النزعة الجماعية عن المجتمعات العربية رغم انحسارها الشديد.

لندن - تشكل الفردانية المتزايدة في المجتمعات العربية تحدياً للسلطة الأبوية السائدة. وإلى وقت قريب كانت النزعة الجماعية مؤثرة بشكل خاص في هذه المجتمعات ليس بسبب التقارب الثقافي والديني فحسب، ولكن أيضاً لأسباب عملية تتعلق أساساً بالتحديات الأمنية المستمرة والقدرة المحدودة للحكومات. وقد خصصت هذه المجتمعات الوقت والمال، وأحياناً الدم، للحفاظ على الروابط العائلية والقبلية.

قيمة الفرد

تعرف الفردانية بأنها امتلاك الفرد قيمة في ذاته وتصرفه باعتباره شخصاً له استقلال نسبي في آرائه وفكره وسلوكه وانتمائه إلى جماعة. ويعرف عالم الاجتماع إميل دوركايم الفردانية باعتبارها حصيلة لسيرورة تقلص مساهمة الوعي الجمعي وثقافته للأداة الضمير الفردي، وبالتوازي مع هذا التطور يكتب الأفراد وعياً بشخصياتهم ومسؤولياتهم.

العلاقات التقليدية

مازالت مؤثرة، بل مطلوبة لمجابهة المصاعب في غياب الاستقلالية المادية والتعليم الجيد

ومع شعور الناس في المجتمعات العربية بضائقة اقتصادية أكبر ومع نمو الشعور بالفردانية تصبح العائلات الممتدة والقبائل أقل أهمية. وبدأ أن المواطنين يعتقدون أنهم بحاجة إلى تقرير مصائرهم بأيديهم، حيث لا يقوم أي شخص آخر بحماية مصالحهم. وخلصت الدراسة إلى أنه من الخطأ افتراض أن الولاء يلعب نفس الدور المركزي في حياة الناس الذي كان يلعبه منذ جيل مضى. ويذكر أنه في العام 1984 أجرى عالم النفس غيرت هوفستيد دراسة حصدت فيها السعودية 38 من أصل 100 نقطة على مقياس الفردية، مما أشار حينها إلى تواجد بنية ثقافية جماعية للفردانية.

وتقول الباحثة ندى الدوسري إن "القبيلة لا تمنح بالولادة بل بالنجاح في حل المشكلات. يصبح الشخص شيخاً إذا اعترف رجال القبائل به كزعيم بعد أن طلبوا مراراً مساعدته في حل المشاكل القبلية. يكتب الشيوخ شرعيتهم واعتمادهم من خلال قدرتهم على حل النزاعات وحماية مصالح القبيلة دون إعادة الفرز إلى الإحراء. وإذا ثبت أن شيخاً غير قادر على رعاية مجتمعه